نفثة محزون على سامراء الشهيدة:

ليس من مصلحة مدينة المعتصم تدمير الروضة العسكرية.. فأهلها احفاد الهادي وحياتهم تعتمد على قبته

لم نكن نعرف سنية العراقي او شيعيته الا عندما يموت.. فيدفن الشيعي في النجف والسني في بلدته

أ. د. سامي الصقار*

■ كنت عازما على تحرير رسالة ابثه فيها احزاني وآلامي، لما وقع في سامراء، مدينة الأجداد من آل البيت المطهر، ومشهد مثواهم، وعاصمة العالم الاسلامي ـ في ايام مجده ـ ما يزيد على نصف قرن، المدينة التي شهدت جحافل (المعتصم) وهي تلبي نداء تلك المرأة المفزوعة وتقول «وامعتصماه»! فدكت حصون الروم وانتقمت لها، كما شهدت المدينة صروح العمران التي شيدها (المتوكل) فخطط مدينة تباري احدث العالم بشارعها الاعظم الذي توازيه القناة، وتنبثق على جانبيه الشوارع والاسواق المخصصة لأرباب المهن والتجارات، وجامع المحبة الذي لا يزال يعتبر ـ رغم تعطله ـ اكبر مسجد في العالم، كما ينفرد بمئذنته (الملوية) التي تمثل ـ مع مئذنة جامع ابي دلف ـ طرازا فريدا من المآذن. وانشأ ايضا حديقة الحيوان (جبر الوحوش) ولعلها اول حديقة حيوان في العالم، والى جانبها ميدان لسباق الخيل هو الاخر فريد في تخطيطه، اذ جعلت شرفة المتفرجين في وسطه ومضمار السباق يحيط بها. وسامراء هذه شهدت صولات الشاعر البحتري في ميدان القصيد مسجلا مناقب (المتوكل) وانجازاته. هذه المدينة العظيمة حولها العدو ان الى ركام من الخرائب.

بدأت الكتابة ويعتصرني الألم لما بلغت اليه الاحوال المأساوية في عراقنا العزيز، ونجاح الاعداء في خلق عداوات بين اهلها لم نعرفها قط (خلال عمري الطويل الذي جاوز الثمانين)، ولكنني سرعان ما اكتشفت ان الحديث ذو شجون، وان الرسالة ستطول، وهكذا تحولت الى مقال طويل، لا ادري مدى حظه من النشر! فليكن ما يكون.

ان النعرة الطائفية البغيضة التي نجح الاحتلال في ارساء مداميكها في تربة الرافدين لم نعرفها قط، وقد اكد ذلك الاستاذ عبد الغني الدلي في رسالة نشرتها جريدة «اندبيندنت» وانا اكدتها في رسالة بعثتها الى «القدس العربي» في 27/10/2005 ولا ادري عما اذا كانت قد نشرت ام لا. واضيف الى ذلك مؤكدا بأن شيعة العراق وسنته كانوا اسرة واحدة، واضرب لذلك المثل بعائلتي (السنية)، فقد كنا في مصاهرة مع الشيعة عميقة الجذور، من ذلك مثلا، ان اثنين من اخوالي تزوجتا من امرأتين شيعيتين، وابن عم لي تزوج بسيدة شيعية، واثنتان من بنات اخوالي تزوجتا بزوجين شيعيين، وابن عم لي فعل مثل ذلك.. وواحدة من شقيقاتي تزوجت بشيعي، وثلاث من بنات شقيقاتي تزوجن برجال من الشيعة، بل ان بعض اهلنا تحولوا الى شيعة باختيارهم. هذا وقد تزوج اللواء ناجي طالب (رئيس الوزراء في عهد عارف) والاستاذ عبد الغني الدلي (الوزير في العهد الملكي) تزوج كل منهما بامرأة سنية. وعلى اي حال لو اردت الاستقصاء سيطول الحديث.

لا نعرف السني من الشيعي

في الواقع اننا لم نكن نعرف اصدقاءنا، هل هم من الشيعة ام من السنة، الا عند وفاة احد من اقاربهم، فاذا كان شيعيا حمل جثمانه الى النجف الأشرف ليدفن هناك، واذا كان سنيا يدفن في مقبرة بلدته. ومع ذلك فان عددا غير قليل من السنة كانوا يوصون بدفنهم في النجف، ومن هؤلاء واحد من اعمامي وآخر من اخوالي، لان مقبرة النجف ليس مقدسة فحسب، بسبب وجود ضريح الامام علي (كرم الله وجهه) فيها بل هناك ما استقر في الاذهان بانها اقدم مقابر العالم، اذ دفن فيها آدم ونوح (عليهما السلام). وهي في الحقيقة مقبرة قديمة ترجع الى عهد المناذرة ملوك (الحيرة) القريبة من النجف، وكانت تسمى (الغربيين).

هذا من جهة، اما من الجهة الاخرى، اود ان اؤكد حقيقة راسخة قد ينساها الناس، وهي ان المسلمين قاطبة والسنة في مقدمتهم، يعتبرون حب آل البيت النبوي (رضي الله عنهم) جزء لا يتجزأ من العقيدة الاسلامية ومن لا يحبهم خارج عن دين الاسلام، ويكفيني ان استشهد بأكبر ائمة المذاهب السنية الامام الشافعي (رضي الله عنه) الذي قال:

ان كان رفضا حب آل محمد
فليشهد الثقلان اني رافضي

ليس هذا فحسب، بل ان صلاة المسلم لا تصح الا اذا ضمنها المصلي عند جلوسه لآخر ركعة ـ سواء من صلاة الفرض ام من صلاة النوافل، بالقول (اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على ابراهيم وآل ابراهيم، انك سميع مجيب). وقد اكد ذلك الامام الشافعي بقوله:

يا آل بيت رسول الله حبكم
فرض من الله في القرآن انزله
يكفيكم من عظيم الفخر انكم
من لم يصل عليكم لا صلاة له

(انظر ديوانه ـ تحمد محمد عفيف الزعبي ـ 1971 (ص55 و72).

فاذا كانت هذه هي مكانة آل البيت لدى عموم المسلمين ـ بصرف النظر عن مذاهبهم ـ فكيف يمكن لانسان عاقل ان يتصور امكان اقدام اي مسلم على تدمير مشهد الامام علي الهادي (رضي الله عنه) ومشهد ابنه وغيبة حفيده؟ هذا وان الامام الشافعي يتبعه ما لا يقل عن 350 مليونا من المسلمين، منهم جميع سكان اندونيسيا وماليزيا واقطار الشرق الاقصى، علاوة على جميع الاكراد، ونسبة عالية من مسلمي العراق واليمن ومصر والسودان. كما ان موقف ائمة المذاهب الاسلامية الاخرى لا يختلف قط عن موقف الامام الشافعي في هذا الصدد.

مكانة الامام الهادي

والآن اود القاء الضوء على مكانة الامام علي الهادي (رضي الله عنه) ليس بالرجوع الى المؤلفات الشيعية، ويكفي ان نلقي نظرة على بعض ما كتبه مؤرخون من السنة، مثل الخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد ج12/ 56 ـ 57 طبعة مصر 1931) وابن خلكان في كتابه (وفيات الاعيان ج3/ 272 ـ 273، تحقيق احسان عباس) والزركلي في كتابه (الاعلام ـ الطبعة الرابعة)، فنجدهم كلهم يجلونه ويشيدون بمناقبه وزهده، وقد اخترت ايضا الرجوع الى ترجمة المتوكل لدى ابن خلكان (ج1/ 353) لانه متهم بالاساءة الى قبر الامام الحسين (رضي الله عنه)، وبالتالي فهو محسوب من اعداء آل البيت ولكن ما رواه ان خلكان ينفي ذلك تماما. وخلاصة ذلك ان بعض الناس (والاشرار موجودون في كل زمان ومكان) سعوا ضد الامام الهادي لدى المتوكل، فاحضره من المدينة المنورة للاقامة في سامراء. وفي سامراء استمر الاشرار بالسعي ضده لدى الخليفة، لاسباب غير معروفة، وزعموا انه يحتفظ في منزله بالاسلحة، واوهموه بأنه يطلب الخلافة لنفسه، فأمر باعتقاله، ولكن من ذهب لتنفيذ ذلك، وجده وحده في بيته وعليه ثوب خشن من الشعر، وهو يتلو القرآن الكريم جالسا على ارض من الرمل والحصا.

وجيء به الى المتوكل، فلما رآه اعظمه واجلسه الى جنبه، خاصة وقد علم ان ما قيل عنه كذب وبهتان، وحصلت بينهما محاورة، شملت انشاد الامام الهادي لابيات من الشعر تضمنت موعظة مؤثرة ابكت المتوكل. وعندها سأل المتوكل الامام: اعليك دين؟ فأجاب: نعم اربعة آلاف دينار، فأمر بدفعها اليه واعادته الى منزله مكرما. هذا وقد اشار الخطيب البغدادي الى ان المتوكل، كان يستغيثه احيانها. ومحالة علاقته بهذا الامر ما ذكره ابن خلكان في ترجمة المتوكل عن اتهام جماعة في زمانه بأنهم يسبون الصحابة، فأمر بالتحقيق معهم، وعندما سئلوا (من خير الناس بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا: علي بن ابي طالب). وعندما سمع المتوكل ذلك (وكان جالسا خلف الستارة) سارع الى القول: فان هذا مذهبي، وامر باطلاق سراح تلك الجماعة ومنحم صلة مجزية وهكذا فان المتوكل بريء مما اتهم به من كره آل البيت.

في الحقيقة ان آل البيت احتلوا مكانة عالية في العهد العباسي، في الغالب الاعم، ويكفي ان نذكر الشريف الرضي الشاعر (واخاه الشاعر المرتضى) الذي قلد نقابة الاشراف في الدولة العباسية، وتشمل الطالبيين والعباسيين جميعا (بمن فيهم اسرة الخلافة) كما قلده امارة الحج التي هي من سلطات الخليفة، ولعل من المفيد ان نذكر قول الشريف للخليفة (ولم يغضب):

مهلا امير المؤمنين فاننا في دوحة العلياء لا نتفرق
الا الخلافة ميزتك فانني عاطل منها وانت مطوق اي
ساوى بين نفسه وبين الخليفة في المكانة، كذلك تمت العناية بالمشاهد المقدسة، بل ان عددا غير قليل من الخلفاء وغيرهم من اعضاء الاسرة العباسية حرصوا على ان يدفنوا عند مشهد الامام موسى الكاظم (رضي الله عنه) ومن هؤلاء (زبيدة وابنها الأمين). هذا ويحدثنا الرحالة الاندلسي ابن جبير عما شاهده في مشهد الامام علي (كرم الله وجهه) من فخامة البنا، وحسن الرعاية، مما هو مذكور في رحلته المشهورة. ومن امارات هذا الاهتمام التي لم ينلها الدمار البوابة الرائعة التي اهداها الخليفة الناصري الى غيبة المهدي وهي من آيات فن العصر العباسي القليلة جدا، بما فيها من زخارف وكتابات.

سليمان القانوني وجهوده لحماية مشاهد الشيعة

هذا وقد استمرت العناية بالمشاهد المقدسة في جميع العصور، حتى ان السلطان سليمان القانوني، عندما طرد الصفويين من العراق، كان اول ما اهتم به هو حفر قناة «الحسينية» لايصال ماء الفرات الى «كربلاء» التي كانت تستقي من الآبار، مما حولها الى واحة غناء، ويسر الماء للأهلين والزوار، ولا زالت تلك القناة قائمة الى اليوم.

وهناك نقطة جديرة بالاهتمام تتعلق بالاوقاف المخصصة للعتبات المقدسة والمدارس التابعة لاخوتنا الشيعة، وهي ان العثمانيين حرصوا على عدم دمجها ببقية الاوقاف، وابقائها تدار من قبل «الحوزة العلمية» في النجف وهي الجهة الدينية الكبرى، واستمر ذلك الوضع قائما بعد تأسيس الحكم الوطني في العراق، لكن العتبات المقدسة، عندما كانت تحتاج الى اعمال صيانة كبرى او تجديدات، كانت الحكومة العراقية تقدم المال اللازم من ميزانية الدولة، او من اموال الاوقاف السنية. وقد حصل مثل ذلك مؤخرا، اذ صرح وكيل سادن الروضة العسكرية في سامراء لمجلة «سامراء» الصادرة في لندن، في عددها السادس عشر لشهر كانون الثاني (يناير) 2005 (ص 13) بأن بعض اعمال الترميم في (الحضرة) قد دفعتها ادارة الوقف السني علاوة على رصد 380 مليون دينار للمئذنة.

وعلى اي حال، فان الروضة العسكرية شأنها شأن جميع العتبات المقدسة في العراق، وفي غيره من الاقطار، يعود امرها لجميع المسلمين، وليس لطائفة دون اخرى، بصرف النظر عمن يقوم بادارة شؤونها والعناية بها (اي السدانة) فهي (اي الروضة العسكرية) برعاية أسرة سنية علوية النسب، هم السادة «ابو صالح الشيخ» ويتولاها حاليا السيد رياض بن السيد صفاء الدين (وهو حقوقي معروف). وقد قامت هذه الاسرة بكل ما يلزم لحفظ مبانيها بأحسن صورة وبتأمين الخدمات المطلوبة بصورة جيدة، وبذل كل جهد ممكن لتسهيل اداء مراسيم الزيارة والعبادات على اكمل وجه، للزوار الذين يقدر عددهم بما يتراوح بين 400 و1000 زائر في اليوم (حسب افادة وكيل السادة الحالي ـ المجلة سابقة الذكر ص 13) علاوة على تأمين الامن والحماية لتلك الاماكن المقدسة وزوارها. وهو امر ليس بجديد، في الحقيقة ان استتباب الامن وحسن العناية شجعا المجتهد الاكبر آية الله الشيرازي (رئيس الحوزة العلمية) لانشاء مدرسة في سامراء قبيل الحرب العالمية الاولى (كتاب السراء من احوال سامراء ـ لمحمود محمد عرب ـ لندن ص 37 ـ 38). وزاد على ذلك فنقل الحوزة العلمية الى سامراء، ولكنه قرر اعادتها الى النجف بعد الاحتلال البريطاني. ولكن ذلك لم يؤثر على مكانة سامراء في نفوس السادة العلماء الذين كانوا يواصلون زياراتهم لسامراء حتى ان البعض منهم (وخاصة رؤساء الحوزة العلمية) كانوا يقضون الصيف في سامراء، للاستزادة من بركات الروضة.

ليس من مصلحة سامراء تدمير الروضة العسكرية

في الحقيقة ان الروضة العسكرية لم يشكُ احد من زوارها من اي اهمال، او مما يعرقل اداء مراسيم الزيارة والعبادة فيها، خلال تاريخها الطويل، منذ تشرفت سامراء قبل الف عام بضم مشاهد الائمة الاطهار، وبغيبة الامام المهدي (رضي الله عنهم اجمعين) اذ حرص اهل سامراء على تأمين راحة الزوار، ومنع القبائل البدوية من التعرض لهم (عندما يختل الامن في المنطقة). والحق ـ كما قال السيد البياتي المتحدث بلسان السفارة العراقية في لندن للتلفزيون البريطاني مساء 22/2/2006 بأن السامرائيين كانوا حماة للروضة العسكرية خلال الف سنة، دون ان تصاب بسوء، وابدى خشيته من ان تفجير الروضة يقع ضمن حملة تستهدف تدمير جميع آثار العراق الحضارية وصروحه الدينية والوطنية (وهذا ما سمعته اذناي وهما ضعيفتان).

وهكذا فانه لم يكن من مصلحة اهل سامراء قط ان يقع اي شيء يؤذي الروضة العسكرية، حتى ولا خدش بسيط، فهم اولا احفاد الامام الهادي (رضي الله عنه) كما تشهد بذلك مشجرات النسب الموثقة التي بحوزتهم. ثم ان حياة المئات من اهل سامراء، بل سامراء، كلها تعتمد الى حد كبير على ما ينفقه الزوار في مدينتهم، علاوة على المرتبات التي يتقاضاها خدام الحضرة وموظفوها. ولذلك فلا يمكن ـ بأي شكل من الاشكال ـ ان يقدم احد من ابناء سامراء بعمل ـ مهما يكن صغيرا ـ يؤذي الروضة من قريب او بعيد، فأبناء سامراء ليسوا من الجهلة والامين الذين يسهل خديعتهم، فسامراء ـ كما هو معروف ـ تعد اكثر مدن العراق غنى بمثقفيها من الاطباء والمهندسين واساتذة الجامعات، من حملة الدكتوراه الذين تخرجوا من مختلف جامعات العالم، وبالتالي فان من المستبعد جدا ـ ان لم يكن من المستحيل ـ صدور تصرف اجرامي من اهلها. وهنا يهمني ان اشير الى ما ذكره مسؤول حماية امن الصحن الشريف لمجلة (سامراء ـ العدد السابق نفسه ـ ص 13) فقال انه على اثر اندلاع العمليات العسكرية (ويقصد تدخل القوات العسكرية) اعتقلت السلطات 11 فردا من رجاله، ولم يطلق سراح الا ستة منهم. اقول: لعل مثل هذه الاعتقالات لرجال الأمن هي التي اضعفت قدرة قوة الحماية على القيام بأعمالها بصورة تمنع المتآمرين على سلامة الروضة العسكرية، من تنفيذ اهدافهم الاجرامية.

وهكذا فانه بحكم المؤكد بأن مَنْ قام بعملية التفجير الاجرامية لا يمكن ان يكون من ابناء سامراء، كما لا يمكن ان يكون من المسلمين، ايا كانت طائفته، ولا بد من البحث عمن له مصلحة في خلق وضع مأساوي في العراق يبرر بقاء قوات الاحتلال الى امد طويل، كما يؤدي الى افشال المحادثات الدائرة بين جميع الكتل السياسية العراقية، لتشكيل حكومة تمثل جميع الأطياف الدينية والعراقية في العراق، خاصة وقد بدت تباشير نجاح تلك المحادثات. وهناك سبب ثالث يحمل بعض الجهات المعادية على خلق احداث جسيمة يمكنها ان تطغى على الانتفاضة الاسلامية الكبرى التي تفجرت حيال الجريمة الدنماركية في نشر صور (الكاريكاتور) المعروفة، تلك الانتفاضة شملت العالم الاسلامي بأسره، واثارت المسلمين على اختلاف طوائفهم وعروقهم، ولعل تلك الجهات هي التي تختفي وراء انفجارات سامراء. هذا ما قرأته في جريدة انكليزية مؤخرا (ولكنني لا اتذكر اسمها لأنني قرأت اكثر من جريدة) ومفاده ان 47 جثة وجدت في حفرة قرب قرية النهروان جنوبي بغداد، لمجموعة من السنة والشيعة الذين عادوا الى قريتهم من التظاهر السلمي ضد انفجارات سامراء، ولم يترك القتلة اثرا ينم على الفاعل. وهكذا فالفاعل عدو للسنة والشيعة على السواء! وقد تنبه ـ لحسن الحظ ـ لخطورة الوضع، كل من سماحة آية الله العظمى السيد خامنئي وسماحة آية الله العظمى السيد السيستاني، فوجه كل منهما نداءه الى المسلمين كافة بأن لا يتورطوا بايذاء احد بسبب الانفجار اللئيم والاكتفاء بابداء الاستياء ويا ليت المسلمين قد تجاوبوا مع هذين النداءين الشريفين، وحكموا عقولهم قبل الاندفاع في ممارسة العنف والقتل والحرف والتفجير، فوقعوا في الفخ الذي نصبه العدو المتربص بهم على الدوام.

---

* سفير عراقي سابق